تجليات المرأة في تجربة أحمد التوفيق الروائية

الدكتورة سعاد عبد الله الناصر- المغرب

كلية الآداب - تطوان

إن جنس الرواية من أكثر الفنون الإبداعية، التي تستطيع استيعاب مجموعة كبيرة من الأسئلة والقضايا والتحولات، بوصفها أكثر التصاقا بصيرورة الحياة وتطورها، وأكثر قدرة على رصد التاريخ والمجتمع بكل ما يزخران به من إيجابيات وسلبيات وأخطاء ومواقف، وذلك بحس جمالي يتفاوت حسب براعة الروائي في امتلاك أدواته التعبيرية والتصويرية.

من هنا يمكن اعتبارها "جزءا من التاريخ، ولكن هذا الجزء يستطيع في بعض الحالات استيعاب رؤية تاريخية واسعة وعميقة، لما له من قدرة على التكثيف والاختزال، ولسلطته الفنية القاهرة التي تجعله أحيانا ندا للتاريخ ومنافسا له."(١) وقد أثبتت النصوص الروائية الإسلامية حضورا متميزا في هذا المجال، سواء من خلال استعارة الواقعة التاريخية في تخيل الحكاية الروائية، وإعادة تشخيصها عبر تمثل انعكاساتها على الإنسان والمجتمع وما تحمله من رؤى تزخر بآفاق متعددة، أو من خلال عرض مواقف وشخصيات إنسانية تدعو إلى التأمل والتذوق. ولا شك في أنها استفادت بشكل أو بآخر من خصائص السرد العربي وتشكيلاته الجمالية، كما استفادت من معطيات الدرس السردي الحديث بصفة عامة.

ولعل روايات أحمد التوفيق تندرج في هذا السياق الذي أبيح لنفسي الولوج إلى عالمه من خلال الكشف عن مجموعة من الخصائص الجمالية والدلالية التي تجلت المرأة عبرها، وحقق القاص وجودها فيها. وإذا كانت أي شخصية إنسانية في السرد الروائي يتم بناؤها من خلال علاقتها بالفضاء، والأفعال والأدوار التي تقوم بها، والمواقف التي تقفها، فإن العرض سيحاول الكشف عن تجليات المرأة في تجربة أحمد التوفيق ضمن هذا المجال.

---

(١) الرواية والتاريخ. إدريس الناقوري. المشكاة عدد ٣٨. سنة ٢٠٠٢. ص١٣.

وشم الانبعاث الحضاري في جارات أبي موسى:

تميزت رواية جارات أبي موسى لأحمد التوفيق بقيمة خاصة، ضمن متنه الروائي. فقد أتى الكاتب من أحضان التاريخ، حاملا عبقه وإغواءه، لينخرط في أتون مغامرة الإبداع الروائي، ويكتب نصا يوهم باستحضار المادة التاريخية والأحداث الواقعية، وهو في حقيقته يقيم بناء جماليا محكما يتماهى في الغرابة والتخييل. لذا نجده يستثمر فترة من الحكم المريني التي تميزت بالجور والاستبداد والبذخ على حساب الشعب، والاضطرابات المتمثلة في الأوبئة وتعاقب سنوات الجفاف، ويقدمها بطريقة تخييلية، تعتمد أسلوب الحكي المتتالي، جعلت بعض الدارسين يذهب إلى القول بأنه "أعاد الاعتبارلسلطة الحكي بمختلف مكوناته وتلويناته."[1] ومنذ أن يتصدر السارد للحكي ندرك ثراء المادة الحكائية، ومهارة إسقاط القارئ في شباكها، من خلال قيم ومواقف وصور روائية تأخذ بلبه، وتترسخ في ذهنه.

ومن أهم هذه القيم والمواقف والصور امتلاك القدرة على مواجهة المصير الإنساني بحرية وشجاعة، تنفذ إلى غور محاولة الرقي نحو الأفضل والأسمى. ولعل القيم الجمالية والإنسانية التي توحيها لنا صورة شامة، الشخصية الأساسية في الرواية، من أبرز القيم التي يتجلى فيها مواجهة المصير الإنساني، عبر توظيف لغة متنوعة المصادر ومختلفة المجالات، حققت في السرد ظلالا من الكثافة والشفافية والإشراق، واستطاعت أن تقدم تلك الشخصية وهي تواجه مصيرها بصمود وعنفوان، في محاولة مستمرة للانبعاث وتحقيق الوجود، رغم ما يحيط بها من مظاهر الفساد والانحراف، وما يجرها إلى اعتبارها مجرد متاع للامتلاك، وموضوع للاستهلاك. وكل الفصول تشف عن وعي شامة بضرورة الارتقاء الروحي والتأمل، وتكشف أن أحمد التوفيق كان يتقصد اختيار أبعاد إنسانية وجمالية، مفعمة بالعمق الرؤيوي الذي يجلي واقع حياة امرأة، وما تنطوي عليه من مواقف وقيم، يقيس بها نبضات انبعاثها المتوالي.

---

(١) أحمد الببوري. العلم الثقافي ٢٦/٧/١٩٩٧.

وشامة لا تمارس الدور الأنثوي المتمثل في الإغواء والمتعة والتزيين كما هو الشأن بالنسبة لدور المرأة في أغلب الروايات العربية، وإنما هي إنسانة فاعلة ومتفاعلة تجمع بين صفاء الروح وجمال المظهر. عرفت حياتها سلسلة من الفواجع والمصائر الدرامية منذ أن دخلت على ضيف سيدها قاضي سلا، ووقع بصر قاضي قضاة فاس عليها، وقرر أن يتخذها زوجة له. "دخلت إلى القبة فتاتان تحملان الطست، خادمة سودانية شابة تحمل جفنة الغسيل، وشقراء فارهة تحمل البقراج الذي به الماء وعلى كتفها فوط بيضاء. لم يكن ابن الحفيد ينتظر ظهور خادمته الشقراء واسمها شامة في هذا المجلس" (الرواية، ص٨). ومنذ تلك اللحظات ترتبط الأحداث وما تؤول إليها من دلالات بعضها بأعناق بعض، وتبتدئ رحلات شامة مع المحن والمكائد وتقلبات الواقع، وفي كل رحلة يمكن أن نرصد انبعاث شامة من أهوال ما يحيط بها، عبر مكان دائري، ينطلق من سلا لينتهي إليها.

ومن خلال أحداث تاريخية وتخييلية يتوالى إيقاعها بسرعة، من ذلك حضور شامة فظاعة غرق أسطول حملة السلطان(ص٤١)، ثم تسجيلها كالمتاع ضمن رسم تركة زوجها. وتشابك المشاعر وتلاحق الصور يشعر القارئ بمحاولة الشخصية التشبث بذلك التوازن الداخلي الذي يكاد يتسرب منها، "وفي مشهد يذكر بيوم الحساب نودي على النساء واحدة واحدة بدءا بالمقربات من السلطان المخلوع، ثم جاء دور النساء اللائي غرق أزواجهن الأعيان في الأسطول، ولم يكن أي منهن على علم بشيء. وكلما وقع النطق بالمتقرر في حق كل واحدة وعلمت منه أنها أصبحت أرملة سقطت مغشيا عليها، وجاء دور شامة بنت العجال أرملة الجورائي، واكتفت بالقول: "إنا لله وإنا إليه راجعون" وتصبرت. وسجلت كالمتاع في رسم تركة زوجها المتوفى، وفوتت للسلطان الجديد" (ص٤٥).

وقد مثلت شامة/ورقاء النموذج الأكمل للمرأة سواء من حيث جمالها "فجمالها الخارق يذكر بالله ولا يمكن على هذا الاعتبار أن يكون عورة توقع في الفتنة" (الرواية، ص١٢٣)، أومن خلال سلوكها، وتأثيرها فيمن حولها، (الرواية، ص٩). ومتابعة السياق السردي لمختلف أفعال شامة ومواقفها، تبرز طبيعة الزمن الروائي الذي يأخذ أبعادا زمنية متعددة: ماضية وآنية ومستقبلية ونفسية وقيمية وغرائبية، تجعل المتلقي ينخرط في دلالات تستحضر إرادة الانبعاث، وإعادة تشكيل ما يحيط بها بصورة أكثر نقاء وإشراقا، مستهدية بنزوعها الروحي نحو التزكية والارتقاء.

ولعل الحالة النفسية المتأزمة التي تفجرت في أعماق شامة إبان اكتشافها خيانة زوجها، ودفعتها إلى التخبط تحت ضغط مشاعر متباينة، خففت من حدة الشخصية المثالية الكاملة التي حرص السارد على تقديمها منذ بداية السرد، لنتبين أن شامة تمثل حالات من الصدق الواقعي الذي يعتري الإنسان صعودا وهبوطا. والملاحظ أن المعجم الموظف في المقاطع التي تقدم نفسية شامة له علاقة مباشرة بتشكل الذات من رؤية حضارية تنزع نحو استقلالية يتم عبرها إدراك الأمور، ووضعها في مستوى التوافق بين أسئلة الأزمة التي تعيشها وبين إنجاز الفعل التغييري، وهذا الأمر يحيل بطريقة غير مباشرة إلى رمزية المرأة في الرواية، فهي رمز للقيم "لا تكف عن العطاء" (ص٩٦)، وهي رمز للحياة في عمقها وخصوبتها وعطائها، وتتجلى لكل من عاشرها في صورة مناسبة لعطائها.

ويبرز وشم الانبعاث الحضاري في شخصيات نسائية أخرى في الرواية من خلال التحول الذي اعترى جارات أبي موسى وشامة، الساكنات معهما في فندق الزيت، الفضاء الذي أثث لعلاقة شامة وأبي موسى بهن، واتخذ شكل رمز منفتح على مختلف التأويلات. وتلك الشخصيات تولدت حكاياتهن من رحم حكاية شامة، عبر توظيف ذكي لتقنية الانشطار السردي، عن طريق تقديم محكيات صغرى متعالقة مع المسار السردي الأساس"[1]، ليبين الكاتب أن الشر ليس فطرة متأصلة في الإنسان، ولا ينمو في فضاء دون آخر، بل إن الخير هو الأصل، وإذا وجد من يبعثه في عديد من النماذج السيئة تتحول إلى الخير، كما رأينا في كل نماذج المرأة في جارات أبي موسى.

وهم الحرية والتوق للانعتاق في غريبة الحسين:

تعد غريبة الحسين لبنة مهمة في تجربة أحمد التوفيق الروائية، سواء من حيث بنيتها السردية القائمة على التتابع الحكائي الذي يتخلله استرجاعات تقوم بوظيفة تقديم الشخصيات وإضاءة جوانب من حياتها تغني سياق الأحداث، أو من حيث مرجعها الواقعي الذي يؤطر رحلة بحث علمية وقعت أحداثها زمن الاستعمار في المغرب، المحدد تاريخها ببداية دقيقة «في ذلك اليوم، يوم الأحد السادس والعشرين من شهر يونيه

(١) أحمد الببوري. مرجع سابق.ش

مـن عام ١٩٤٩، دخلت الآنسـة كلود فيرني على حديقة اللوكسـمبورك القريبة من الحي اللاتيني بباريس»(ص٥)، والوقع الذي تركه هذا الاسـتعمار في نفسـية شخصية الرواية المركزية، المنتمية إلى حضارة ممارسة له.

وباستثناء فصل استعدادات التمهيد لرحلة البحث عن أصول الموسيقى الأندلسية التي كان فضـاؤها المكاني باريس، وقعت فصـول الرواية كلها في المغرب فترة تنامي الحركات الوطنية ومواجهتها للاستعمار. وفي إطار هذا البحث يتمدد الحكي بكل تفاصيله، ويحكي عـن فتاة فرنسـية لا تتفق مع التصـور الاسـتعماري لبلدها «لم يفت كلـود أن تلحظ بين المترددين على نادي طلبة شمالي إفريقيا المسلمين تميز سلوك عمر ومعاناته تحت طبيعة واجمة كأنها مفروضة عليه. ولذلك تقربت منه، وبرهنت له مع الأيام في عفة أرستقراطية أصـيلة أنها تقف في الضفة الأخرى بالنسـبة للذين لطخوا أيديهم بدماء والده»(ص٦)، وتسـعى إلى محاولة فهم حضارة الشـرق، والتغلغل في عمق رؤيته الحضارية، ابتداء من حرصـها على النهل من الكتب التي تتحدث عنه، مرورا بحرصـها على حفظ متون جلال الدين الرومي في لغته الأصـل (ص٣٧)، وانتهاء بممارسة الحياة اليومية في إحدى قبائل ملويـة في أقصـى المغرب، «تلقت كلود بصـدرها الذكي شـحنات ذلك العطـف المعنوي، وانخرطـت في نمـط الحياة الـذي ينتظرها بلا تردد. فهـي قد سـافرت في باطنها نحو المسـتقبل، وقطعت الأوصال مع الحاضر والماضي. تسـتيقظ مع البنات وتشتغل معهن في المطبخ وفي منسـج الزرابي في الغرفـة الكبرى» (ص٣٦٦)؛ لتكتشـف أن مظاهر الحرية التـي تربت عليها في حضـارتها هي حريـة موهومة، لذا كان توقهـا إلى التحرر والانعتاق سمة من سمات التحول الذي رسخ عمق فهمها لطبيعة الحضارة التي ينتمي إليها المغرب. وقد شـغلت شخصـية كلود موقعا مركزيا متميزا في الرواية، باعتبارها بؤرة الحكي التي قدّمـت إمكانيات دلالية ثرية، سـواء من حيث علاقاتها بالأحـداث، ودورها في حمل فكر السـارد والتماهي مع رؤاه، أوفي علاقة الزمان والمكان بنفسـيتها، من خلال التركيز على اللحظـات الآنية، المشـكلة للفعل التغييري الذي يتم عـبره إدراك الأمور ووعيها، والنزوع نحو استقلالية منظوره عما يحيط به من مظاهر سلبية.

وفي خضـم الرحلـة البحثية التـي قامت بها كلود مـع والدها، يعرض الكاتب نماذج نسـائية متنوعة تنوع الحياة، وكلها تمثل صـنفا من أصناف النسـاء ابتداء من المستلبة،

وغير المبالية، والمتزنة، واللعوب.. وغير ذلك، لكن طبيعة عرضها لا يكاد يخرج عن دلالة وهم الحرية أو التوق نحو الانعتاق. ورغم الطابع التخييلي الذي يخيم على فضاء الرواية وأحداثها، وثراء مادتها الحكائية وتدفقها، وتوالي إيقاعها السريع، فإن العلاقات المعقدة والتحولات النفسية والفكرية العارضة لشخصياتها، تجعل القارئ يعيش تفاصيل حياة بكل واقعيتها وإمكانية وجودها.

التقابل بين الواقع والإمكان في السيل وشجيرات حناء وقمر:

تشترك روايتا السيل وشجيرات حناء وقمر في تأطيرهما بأحداث تاريخية، رغم اختلاف فترتيهما الزمنيتين، إلا أنهما تتحركان في الفضاء القروي الذي استوعب أحداثهما وشخصياتهما، وتشكل الأسماء والأشياء علامات سيميائية ناطقة بملامح بيئتهما. وهو فضاء بقدر ما كان مكانا خصبا لكل ما هو نقي وأصيل، أصبح أفقا للتخلف والتهميش. وإذا كانت رواية السيل تحكي قصة رجل ترفضه الحياة بسبب التهميش الذي تعيشه القرية، وتحكم القيم الفاسدة فيها، في مرحلة ما قبل الاستقلال وبعده بقليل، وتنفذ إلى عمق الظروف النفسية الذي يمكن أن يعانيها الإنسان من جراء فعل لا مسؤولية له عنه، دون أن يجد في نفسه القدرة على التغيير، فإن شجيرات حنة وقمر تحكي قصّة قائد قبلي يبني سلطته، وسط تناقضات متعفنة، وفي بناء السلطة يسقط في سجن تضيق سراديبه إلى حدّ الاختناق، في إطار زمني محدد بأواخر القرن التاسع عشر.

وقد أورد الكاتب تعليقا في عتبة من عتبات رواية السيل، يوجه فيه القارئ إلى موقع المرأة في حياة الشخصية المحورية، يقول فيه: "وهي قصة رجل بسيط جداً، غوى مرّتين، وطارده السيل مرّتين، وحار في أيّهما تطوى الأخرى: النعمة أم النقمة، حتّى إنّه حار بين حبّ الأمّ وبنتها. تدخّلت في حياته ثلاث نساء، واحدة حملت به لأن قلبها فاض يوما بماء الحياة، وواحدة عرّفته كيف المرأة حتّى عذر أمّه، ودفعته إلى أن يهاجر ليكون رجلا، وكما يقول لها: أنتِ وحدك الرجل في هذا البلد، وثالثة عشقته وتعلّم منها مدى هشاشة المدينة. كان في صغره يعتقد أن الحمق عملة نادرة، ولما هوى كبيرا في دركات الجنون، تركه الناس لتشقى به التي أرادته أن يكون رجلا... ولما صار جثّة هامدة نازعوها في إرثه لأنّها تفتقر إلى بيّنة".

وبتتبعنا لصورة المرأة الروائية في النصين معا، نجد أنها تراهن على تقديم السمات المؤثرة في الشخصية المركزية، وتدور في فلكها، فالمرأة رغم موقعها المؤثر في صيرورة الأحداث إلا أنها ترتبط بالشخصية المركزية التي هي بؤرة الحكي في الروايتين. وتقوم بوظيفة إضاءة وجدانها وتوجيهها. وتكاد تتماثل صورتها في السيل وفي شجيرات حناء وقمر، فهي التي تغذي جذوة الفعل في نفس الشخصية، وتنمي طموحاته في الحياة، وهي أيضا مصدر المكر والإغراء وإرادة التملك، وغير ذلك من الصفات التي تلتقي مع الصورة النمطية للمرأة في الواقع العربي، "لو تعلمت العطارة مع أبي حتى أكون عطارا لما نجوت من مثل إغراء النساء الذي أدى إلى إفلاسه. وهكذا تملكه الإحساس بمكر أمه وبإغرائها، واغتم لبلاهة أبيه الذي استسلم للإغراء" (السيل ص٢٢).

ويضع السارد على لسان بيزين قوله: "يسبقنا الكلام لكننا نكتشف، ها أنذا أزداد معرفة بالنساء، فدواخلهن أكثر استغلاقا من أدغال الغابة، ميالات إلى التملك والاستعباد. فهل تراني أوبقت نفسي؟" (ص٢٨). لكن هذه الصورة النمطية تقابلها صور أخرى توحي بإمكانية تحسينها؛ "شربت عندها الشاي وكلمتني بكثير من الحنان حتى أنساني كلامها شركم أيها البشر" (السيل ص٢٤)، "قرر على الخصوص أن يبقى حتى يواجه صاحبته لومي ويقول لها: ها أنت قد حققت ما كنت تسعين إليه، أن تحرريني عبر العذاب، أن تدفعي بي إلى الهجرة" (ص٣٥). فنجد مثلا أن كلمة التشنيع تحضر في السرد أكثر من مرة لتبعد عن الأرملة لومي صفة المستهترة واللعوب عنها، إلا أن ما يحصل بينها وبين بيزين في الغابة يجعل هذا الأخير يشعر بما ارتكباه من إثم: "لما استيقظ لم يجدها بجانبه لتشاركه الخوف والندم.. وقال في نفسه: لو لعنتني هذه الغابة للعنتها مرتين، فكيف لها أن تتبجح بعذريتها وهي المتسترة على أنواع الفضائح" (السيل ص٣١). ونجد كذلك تمجيدا لعفة كيما، زوجة همو، وورعها عبر صور كاشفة للجمال الروحي والجسدي في عذريته وبراءته، كما نجد ارتباط السالمة بالطبيعة، والبهاء الذي تعكسه عليها، وفي الوقت نفسه، نجد تأجج الصراع الذي تساهم فيه المرأة، وعلاقات الكره والأنانية. إلا أن المتأمل في هذه الصور يجد أنها تمثل الحياة بكل تشعباتها، وتأخذ نماذج لها من المرأة والرجل معا.

وكثيرة هي الصور التي تبرز في النصين أن المرأة رمز للغواية والفساد، كما أنها فيض من فيوضات الحب والعطاء والجمال والصفاء. وهذا التقابل بين الصورة النمطية كما يوحي به واقعها، وبين محاولة تحسينها في السياق النصي يكشف عن الوعي بسلبية الصورة النمطية، وعرضها بوصفها واقع حاصل يجب تغييره.

خاتمة:

رغم اختلاف تجربة روايات أحمد التوفيق وأسلوب عرض كل منها، فإن موقع المرأة بصفة عامة، ينطوي على نسيج من العلاقات والمواقف والقيم، يقدمها النص الروائي في نسق تخييلي مفعم بالتشعبات الإنسانية المتنامية، على نحو ينفذ إلى عمق السلوك البشري، وتفاصيل المعاناة الفردية والتناقضات الاجتماعية. ويكشف عن مجموعة من القيم الإنسانية والجمالية الموجهة لوظائف الفعل السردي ودلالاته المتعددة. وقد ساهم انسجام وتآلف المعجم اللغوي والفضاء والصور البلاغية مع الشخصيات والأدوار المنوطة بها في صياغة هذا النسق التخييلي، وتكثيف الواقع الذي يحيل عليه، وعكس همومه وتناقضاته. لذا تجلت المرأة فيه فاعلة ومنفعلة. وسواء كانت شخصية مركزية أم لم تكن، فإنها كانت أساسية في بناء الفعل السردي، وقدمت إمكانات دلالية حركت مسارات الأحداث، وحددت نقاط تأزمها، وخلخلت صورتها النمطية في الواقع الراهن، وحاولت تقديم صورة متكاملة عن المرأة، باعتبارها إنسانا تكمن مشكلته في ذاته ونظرته إليها.